الفصل السادس
الدولة العثمانية
بين التيار القومي والجامعة الإسلامية

- نشأة التيار القومي وتطوره
- السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية
- فكرة الجامعة الإسلامية بين المؤيدين والمعارضين

نشأة التيار القومي التركي وتطوره

يتفق أغلب المؤرخين علي أن ظهور الدعوة إلي القومية التركية يرجع إلي حركة تركيا الفتاة التي تأسست في عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦ م) أو قبله بسنوات قليلة(١)، وقد اتخذت في البداية من باريس ولندن مقراً لها حوالي سنة ١٨٦٠ م، ثم انتقلت بعد ذلك إلي جزيرة سالونيك وتسمت باسم الاتحاد والترقي . ويبرر المؤرخون نشأتها خارج تركيا بأنه يرجع إلي استبداد السلاطين دون أن يبحثوا عن الأسباب الحقيقية في ذلك والتي ترجع - في رأينا - إلي انتماءات مؤسسيها وطبيعة مبادئها .

أما عن انتماءات مؤسسيها فيذكر أحد المستشرقين أنهم كانوا " خليطا من الأتراك واليهود وعناصرعثمانية من أجناس أخري" (٢)، والحقيقة أن العناصر التركية التي شاركت في هذه الجمعيات كانت في أغلبها من اليهود الذين استوطنوا جزيرة سالونيك بعد خروجهم من الأندلس ، ثم تحولوا في أغلبهم إلي الإسلام ظاهرياً ، وهم من يطلق عليهم إسم يهود الدونمة . وقد استمر ارتباط هذه العناصر باليهود أكثر من ارتباطهم بالدولة العثمانية بعد تحولهم إلي الإسلام ، وشاركوا العناصراليهودية في العمل علي تحقيق أهدافهم في تمزيق الإمبراطورية العثمانية .

ومن الدلائل التي تؤكد هذه الحقيقة ما قاله رئيس دولة إسرائيل "إسحاق بن زفي" في كتاب له بعنوان :"الدونمة " صدر سنة ١٩٥٧ م حيث ذكر : " أن يهوداً كثيرين ، وكثيرين جداً ، يعيشون بين الشعوب بطبيعتين إحداهما ظاهرة وهي اعتناق دين الشعب الذي يعيشون فيه اعتناقاًجماعياً وظاهرياً، والثانية باطنية وهي إخلاص عميق لليهودية " (٣)

---

(١) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٤٨ ؛ د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦ .
(٢) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٧٦ .
(٣) د.محمد علي الزعبي:الماسونية في العراء ص٢١٩؛ محمد صفوت السقا وسعدي أبو حبيب : الماسونية ص ١٥٨

وفي تعريفه للدونمة ذكر أنها " طائفة مسلمة يهودية لا تزال منذ زعمت الإسلام تعيش في تركيا بوجه مسلم ، وهذا ما ساعدها علي التدخل في شؤون تركيا السياسية والاقتصادية والتربوية والتوجيه الفكري " (١) . ولم تمتزج هذه العناصر بالعناصر الإسلامية سوى من الناحية الظاهرية في حين ظلت تحافظ علي استمرار يهوديتها وفقا لتعاليم ثابتة ومتوارثة يحفظونها بينهم ويواصلون الالتزام بها ، ويوضح رئيس دولة إسرائيل في مؤلفه هذه التعاليم فيقول : " لا تتزوجوا إلا فيما بينكم ولا تأخذوا من عادات الآخرين إلا الظاهر ينبغي أن نعمي عيونهم عن الحقيقة ، ونحافظ علي الإسم المزدوج " (٢) . وكان من أبرز هذه العناصر في جمعية الاتحاد والترقي أنور وطلعت وجمال وجاويد وخالدة أديب ثم مصطفي كمال الذي عرف بعد ذلك باسم أتاتورك .

أما العنصر الأخير الذي تكونت منه جمعية الاتحاد والترقي فكان من بعض النصاري العرب وبعض المسلمين ، وهم جميعاً من أعضاء المحافل الماسونية من أمثال خليل غانم وهوعربي مسيحي من بيروت ونائب في مجلس المبعوثان، وأنشأ جريدة أسماها تركيا الفتاه ، وكذلك أحمد رضا الذي أصدر مجلة المشورة (٣) .

وعن أهداف هذه الجمعية فقد تعددت بتعدد عناصر تكوينها ، وبالقطع كان هدفها الرئيسي هو تحقيق الأطماع اليهودية التي تشكل العنصر الغالب فيها والذي يتركز في الهجرة إلي فلسطين ، ورأت أن ذلك لن يتحقق إلا بالسيطرة علي مقاليد الأمور في

---

(١) د . محمد علي الزغبي : المرجع السابق ص ٢١٩ ؛ د . أحمد عبد الرحيم مصطفي : المرجع السابق ص ٢٦٣ حيث يذكر أن يهود الدونمة هم من أبناء اليهود من أتباع المسيح الدجال شبتاي (١٦٣٢ - ١٦٧٥ م) الذين تحولوا معه إلي الإسلام سنة ١٦٦٦ م حين أرغمه السلطان علي إعلان زيف ادعاءاته بأنه المسيح ، وقد حافظوا طويلاً علي شخصيتهم باعتبارهم جماعة متميزة ، فكانوا لايتزاوجون مع المسلمين أو مع اليهود ، كما مارسوا سراً بعض الطقوس اليهودية .

(٢) د . محمد علي الزغبي : المرجع السابق ص ٢١٩ .

(٣) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦

الحكومة التركية ، وهو ما يسميه أحد المستشرقين إقامة حكومة صالحة للدولة علي أساس انصهار الأجناس كلها [١] ، وبشكل يمكنهم من تغيير القوانين التي تعوق تحقيقهم لهذا الهدف ، إلي جانب بعض الأهداف التي تسهم في توجيه الدولة إلي الاتجاه العلماني وهي الأهداف التي كان يرمي إليها دستور ١٨٧٦ م الذي أعده مدحت باشا .

وحين تنبه السلطان عبد الحميد لأبعاد هذه الجمعية وحقيقة أهدافها المنافية لتمسكه بالاتجاه الإسلامي اتخذ العديد من التدابير لمحاصرة نشاطها مما دعاها للتحول إلي جمعية سرية [٢] ، واتخذت من سالونيك مقراً لها حيث الأغلبية اليهودية إلي جانب الحماية الأوربية ، ورأت أن كل أهدافها عرضة للتجمد أو الفشل إذا ما استمرت هذه السياسة ، فجعلت هدفها الرئيسي هو السعي لخلع السلطان عبد الحميد أو قتله ، واتهمته بالاستبداد والرجعية ، وهي تهم التصقت به وشاعت بين كثير من المؤرخين باختلاف منظورهم ، وتناقلها كثير من كتبة التاريخ العرب نقلاً عن اليهود والأوربيين ـ بوعي أو غير وعي ـ حتى جعلوها من البديهيات والمسلمات .

ويؤكد بعض المؤرخين صلة الحركة القومية التركية بشكل عام وجمعية الاتحاد والترقي بشكل خاص بالحركة الماسونية ، فيذكر الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفي أن بعض الشباب العثماني الذي تلقي تعليمه في أوربا قد أسسوا جمعية " شباب العثمانيين " سنة ١٨٦٥ م والتي " كانت تستلهم أفكار الكاربوناري الإيطاليين ، ومن أعضائها نامق كمال والأمير مصطفي فاضل الأخ غير الشقيق للخديوي إسماعيل حاكم مصر [٣] ، وأن

---

(١) جورج أنطونيوس : المرجع السابق ص ١٧٦

(٢) د . عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٨٦ .

(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني ص ٢٢٧ ، والكاربوناري أسلوب من أساليب الحركة الماسونية

نامق كمال ورفاقه قد حاولوا نشر أفكارهم عن طريق تربية الرأي العام علي نمط ما كان يجري في أوربا الغربية " (١) . وقد وقف هذا الفريق من الشباب ضد السلطان عبد العزيز حين أراد أن يستعيد السلطة بيده ويقوي مركزه مستعيناً ببعض المحافظين المسلمين وساندهم أحد المنتمين إليهم في السلطة وهو مدحت باشا في اتجاههم الرامي إلي إثارة القلاقل ضد السلطان وتعيين ولي العهد الأمير مراد الذي كان هو الآخر منتمياً إلي محافلهم السرية (٢) .

وتؤكد الوثائق البريطانية ارتباط جمعية تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي بالمحافل الماسونية ، فقد ورد في رسالة السفير البريطاني " جيرارد لاوثر " إلي وزير خارجيته " هاردينغ " في ٢٩ مايو سنة ١٩١٠ م أن " عمانوئيل قرة صو " وهو يهودي من سالونيكا ويمثلها في مجلس المبعوثان العثماني ، بالتعاون مع الماسونية الإيطالية أسس محفلاً في سالونيكا سماه محفل ماسيدونيا ريزيرتا ، ويبدو أن قرة صو أقنع رجال تركيا الفتاه ضباطا ومدنيين بالانتماء إليه ، وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودي غير المستساغ علي الأوضاع الجديدة في تركيا ، وإن كان يتظاهر بأنه إنما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاه في تضليل جواسيس السلطان عبد الحميد ، ومنحهم الأمن في محفله ، لأن المحفل الذي ينعقد في بيت أجنبي يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب في الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش . ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاه قي سالونيكا كانوا بالدرجة الأولي من اليهود ، وكانت شعارات أعضاء تركيا الفتاه الحرية والعدالة والإخاء من ابتكار الماسون الإيطاليين ، وكانت ألوان علم الحركة الأحمر والأبيض هي نفس ألوان علم

(١) المرجع السابق ص ٢٢٦ .
(٢) حسين عمر حماده : الماسونية والماسونيون في الوطن العربي ، ص ١٠٦ ، ١٠٨ .

الماسونية الإيطالية . وبعد مدة قصيرة من انقلاب ١٩٠٨ م ، وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقي إلي القسطنطينية استانبول أصبح معروفاً أن عدداً كبيراً من قادتها كانوا ماسونيين ، وأخذ قرة صو يلعب فيها دوراً كبيراً ، ومن ذلك نجاحه في السيطرة علي فرع جمعية الاتحاد والترقي في البلقان . وقد لوحظ أن اليهود المحليين والأجانب علي اختلاف انتماءاتهم كانوا متحمسين للعهد الجديد ، ومع أن جمعية الاتحاد والترقي تظاهرت كذباً وزيفاً بتحويل نفسها من جمعية ثورية سرية إلي حزب سياسي وجمعية اجتماعية ذات نظام داخلي معلن ، إلا أنه لوحظ في الوقت نفسه أن المحافل الماسونية أخذت تظهر بكثرة ، كما ينبثق الفطر من باطن الأرض في جميع المدن الرئيسية والصغري في مقدونيا والعاصمة كذلك . ولا يحتاج المرء إلي كثير من التحري والتحقيق ليعلم أن سرية المحافل قد استخدمت جزئيا لإخفاء الإجراءات الداخلية للجمعية التي أعلنت أنها لم تعد سرية ويبدو أن جمعية الاتحاد والترقي مازالت تقوم بدعاية سرية ، ويبدو أن ذوي المناصب المهمة وغيرهم من الموظفين قد أفهموا أن مناصبهم وترقياتهم ، وبالتالي موارد رزقهم تتوقف علي معظم نواب جمعية الاتحاد والترقي في مجلسي المبعوثان والأعيان ، وأصبحوا أعضاء في المحفل الماسوني(الدستور) ،والذي كان من رؤسائه طلعت بك وزير الداخلية وجاويد بك وزير المالية"(١) .

ولعل هذه الوثيقة ترد علي ماذهب إليه البعض في أن المحافل الماسونية لم تلعب دوراً رئيسياً في الثورة بحكم أن الكثيرين من أعضاء تركيا الفتاه كانوا يقيمون في المناطق الريفية الداخلية التي لم تشهد نشاطاً ماسونياً ، وأن التنظيم الذي ساعد المحافل تمثل في

(١) fo . 8001 . 193 a نقلاً عن حسين عمر حمادة : المرجع السابق ص ١١٢ ، ١١٣ .

الطريقة البكتاشية الصوفية [١]، فمع أننا لانتكر الدور الذي لعبته هذه الطريقة في مساندة الحركة الماسونية في الدعوة للقومية التركية المناهضة للسلطان عبد الحميد إلا أننا نؤكد انتماء الكثيرين من مشايخ هذه الطريقة للمحافل الماسونية [٢]، وأن أعضاءها الماسون كانوا أسبق من غيرهم في مساندة الثورة.

الفكرة القومية التركية وتطورها

علي ضوء ماسبق توضيحه من طبيعة الحركة القومية التركية وأهدافها وانتماءات دعاتها يمكن تتبع أبعادها وتطورها. فقد بدأت هذه الحركة تعبر عن نفسها من خلال الأدب، فاهتمت بإحياء نماذج أدبية قديمة في الأدب التركي، واستبدلت ماكان لديها من نماذج بالفارسية والعربية بنماذج أوربية وبخاصة الفرنسية، وابتعدت كثيراً عن المؤثرات الإسلامية في كل جوانبها، ونحت منحى علمانياً يهتم بآراء المفكرين الفرنسيين كالحرية الفردية والدستور والحياة النيابية وغير ذلك [٣]. كما ركزت علي إحياء الأمجاد التركية القديمة السابقة لدخولهم في الإسلام كغزوات وغارات المغول الكبار مثل جنكيزخان وتيمورلنك حيث صوروهم في صور الأبطال العظام. ولا نتفق مع البعض في أن تأليف الكاتب الفرنسي اليهودي الشهير لهذه " ليون كاهون " لهذه القصص كان لمجرد تسلية الفرنسيين فهي كلها أساليب تتوازي مع مثيلاتها من توجهات الحركة الماسونية في ولايات الدولة العثمانية والسعي لإحياء القوميات فيها كاكتشاف حجر رشيد وكتاب وصف مصر لكاتب فرنسي في مصر، وإحياء الأدب الجاهلي ومساندة التيار القومي

(١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفي: المرجع السابق ص ٢٦٥؛ د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٥٥
(٢) محمد صفوت السقا وسعدي أبو حبيب: الماسونية، ص ٢١٤.
(٣) د. محمد أنيس: المرجع السابق ص ٢٤٨.

العربي في بلاد الشام ، وليس أدل علي ذلك في الجانب التركي سوي السعي السريع لترجمة هذه الكتب إلي اللغة التركية التي لم يكن بالقطع الغرض منها تسلية الأتراك (١) .

وبعد أن نجحت هذه الحركة في أن تجمع حولها بعض المؤيدين من خلال دور هذه المحافل وأساليبها كالصحف التي أصدرتها والأعمال الأدبية التي روجت لها مثل مسرحية "الوطن" التي كتبها " نامق كمال " وغيرها تحولت الحركة إلي حركة سياسية ، وتركت في أغلبها باريس التي احتضنت نشأتها وأيدت خطواتها وأهدافها وتسربت إلي داخل الدولة العثمانية .

وقد هيّأت الظروف الخارجية والداخلية التي أحاطت بالدولة العلية الطريق لظهور أحد قواد هذه الحركة وهو مدحت باشا ، فقد اضطربت الأحوال في بلاد البلقان وبشكل هدد بإمكانية استقلال بعضها عن الدولة كالصرب والبلغار ، وأسهمت هذه الظروف إلي جانب التهديدات الأوربية إلي إفلاس خزانة الدولة وهو أمر يحاول البعض إرجاعه إلي إسراف السلطان عبد العزيز. واستدعي السلطان عبد العزيز مدحت باشا لمنصب الصدر الأعظم أملاً في إسهامه في حل هذه الأزمة من خلال الولايات التي تولاها لكن مدحت باشا مكن لنفسه من خلال استعانته بأعضاء ماسون من جماعة تركيا الفتاه واغتنم الفرصة وأجبر السلطان علي الاستقاله ليحل محله السلطان مراد الخامس حيث كان قد انتمي إلي محفل ماسوني ، وعرف عنه بعده عن الإسلام وإقباله علي الأفكار العلمانية الغربية ، ثم أبعده مدحت باشا لصرعه وهوجائيته وإفراطه في ملذاته ، وعرض تولي عبد الحميد الثاني بشرط قبوله لإعلان الدستور ، فصدر الدستور فعلاً في بداية توليه ١٨٧٦ م .

---

(١) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

وقد اضطرت الظروف الخارجية المتمثلة في الحرب الروسية ، وكذلك إدراك السلطان عبد الحميد لأغراض مدحت ورفاقه ، وما تضمنه الدستور من التحول إلي العلمانية ، وعدم ثقته في كفاءتهم ونزاهتهم ، أن يقوم السلطان بإبعاد مدحت عن منصبه وتعطيل الدستور ، فتحولت حركة تركيا الفتاه إلي حركة سرية (١) ، ولم تجد أمامها سوي التخطيط لإبعاد السلطان ، فكونت جمعية سرية أخري بجانبها من العسكريين علي غرار الجمعية الماسونية العسكرية الإيطالية " كربوناري " التي تشكلت في إيطاليا قبل توحدها ، وترأسها أحد الألبان وهو " أدهم أونيمو" (٢) .

وفتحت المحافل أبوابها وبذلت أموالها لتكوين العديد من الجمعيات داخل قطاع الجيش ، وجهزت لانقلاب عسكري سنة ١٨٩٦ م ، لكنها سرعان ما أصيبت بإحباط وخيبة أمل بسبب اكتشاف السلطان عبد الحميد لهذا الانقلاب وإلقاء القبض علي رجاله ونفيهم (٣) .

وكان عدول السلطان عن محاكمتهم وقتلهم والاكتفاء بنفيهم دليلاً علي حرج موقفه ، وكثرة عدد المتآمرين عليه وتسلطهم علي مناطق كثيرة وحساسة في الدولة . لكن الأمر الذي أصاب دعاة الحركة القومية ومن خلفها الدول الأوربية الساعية إلي تقسيم الدولة العثمانية ، أصابهم بالاهتزاز ودعاهم إلي سرعة تنظيم صفوفهم كان في إعلان السلطان عبد الحميد عن فكرة الجامعة الإسلامية .

---

(١) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٥٠ ؛ د . أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٤١ .
(٢) د . محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢١٥ .
(٣) د . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية ج ٢ ص ١٠١٠ .

السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية

لم تكن فكرة الجامعة الإسلامية تعبيراً عن اتجاه شخصي أو رغبة ذاتية من السلطان عبد الحميد بقدر ما كانت استجابة منه لنداءات الشعوب الإسلامية التي تعرضت لحلقات من الهجمات الشرسة من قوي الاستعمار الأوربي والمنظمات السرية اليهودية ، وبعد أن أحاط الشعوب الإسلامية شعور كامل باليأس من إمكانية الدفاع عن وجودها . ولم تكن هذه الشعوب مستعدة لأن تأخذ من الحضارة الغربية مايساعدها علي المقاومة بعد أن كرهت كل ماهو غربي ، وكانت . ومازالت . لديها ثقة كاملة . برغم الشعور بالضعف . في قدرة المنهج الإسلامي كي يكون سبيلها إلي الصمود والمواجهة .

وقد أزكت الدول الغربية . تساندها المنظمات اليهودية في هذه الجولة . هذا الاتجاه لدي الشعوب الإسلامية بتحيزها الواضح للشعوب المسيحية في البلقان ، والتغاضي . بل وربما المشاركة . في قتل المسلمين بالجملة في البلقان وأواسط آسيا (١) ، وتأييدها للأقليات المسيحية في المشرق العربي وبخاصة مصر والشام علي حساب حقوق المسلمين ، ولهذا أدرك أغلب المسلمين . كما أدرك السلطان عبد الحميد من خلال أجهزته وحسه . أن الاحتماء بالرصيد الإسلامي الديني هوالسبيل الأمثل للتصدي لهذه الحملات المتعصبة الأوربية اليهودية التي لم تنجح وسائل الحضارة المعاصرة في تغطيتها أو حتى تلوين وجهها ووجهتها .

وكان الأوربيون قد أحكموا قبضتهم علي أغلب الأراضي والشعوب الإسلامية فخضعت الجزائر وتونس للاستعمار الفرنسي ، وخضعت مصر والسودان للاستعمار البريطاني ، كما سيطر البريطانيون علي شواطئ الخليج العربي وجنوب اليمن وتسللوا

(١) د . أحمد عبد الرحيم مصطفي : المرجع السابق ص ٢٥٠ .

إلي أنهار العراق ، وسيطر الفرنسيون علي الشام من خلال الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية . كما نجحوا في أن يتسللوا إلي القصر الحاكم العثماني ومؤسساته لدرجة وصلت . كما يصفها مراقب غربي . إلي أن " يعم المجتمع التركي في الأناضول بأسرها شعور باليأس وفقدان الأمل في مستقبل البلاد ، وقد انتشرت النبوءات التي ذهبت إلي أن نهاية سلطة الأتراك وشيكة الوقوع " ، ولهذا كان علي السلطان عبد الحميد . كما كتب هذا المراقب ." أن يوجد شعوراً بالأمل لدي رعاياه المسلمين " (١) ، فنادي بفكرة الجامعة الإسلامية .

كانت لدي السلطان عبد الحميد قناعة كبيرة بأن تجاوز الأخطار الخارجية والداخلية التي تحيط بالدولة لن يكون إلا بالإسلام ، ورأي فيه القوة الوحيدة التي تمكنه من ذلك ، ويبدو ذلك في قوله : " إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوياء ونحن أمة حية وقوية ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم " (٢) .

كان الرجل في سلوكه الشخصي قدوة طيبة توحي بالأمل لنجاح الفكرة ، فكان يتمتع بسمعة طيبة لدي القريبين منه وتسربت إلي رعاياه ، لايميل إلي التبذير ولا يشرب الخمر ، يحافظ علي أركان الإسلام وأولها الصلاة ، وقد استطاع أن يفرض هذه الأمور الطيبة علي المحيطين به في القصر أولاً ، وأن يمنع كافة العادات السيئة التي تسربت إلي القصر قبل توليه السلطة (٣) .

بدأ السلطان يجمع حوله بطانة من علماء الدين من ذوي السمعة والمكانة العالية ووجههم إلي ضرورة إنشاء معهد ديني لتخريج الدعاة ، وفي نفس الوقت بدأ يهتم بالوعظ

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧ .
(٢) أحمد فهد الشوابكة : الجامعة الإسلامية ص ٢٣ .
(٣) د . أحمد عبد الرحيم مصطفي : المرجع السابق ص ٢٤٨ .

والإرشاد في تركيا ثم في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي من خلال خريجي هذا المعهد . وفي الوقت الذي ألزم فيه نفسه بسيلسة تقشفية أغدق الكثير من أمواله في التصدق علي المحتاجين من المسلمين وبخاصة في مواسم الحج . وكثف من حجم الدعوة لفكرته أثناء الحج بحيث يحملها الحجاج إلي بلدانهم ، وأقام بعضهم دوراً للدعوة في بلدانهم نعمت بدعمه المالي ، كما نعمت المدارس الدينية بدعم مماثل في كثير من مناطق الدولة . وأنشأ مع ذلك العديد من الصحف والمجلات التي سخرها للترويج لهذه الدعوة بين كافة الكوادر الإسلامية .

وفي الوقت الذي يري فيه البعض أن حرص السلطان عبد الحميد علي جمع السلطات بيده يعد مظهراً استبدادياً (١) ، يري البعض الآخر أن ذلك كان أمراً ضرورياً لإصلاح الأوضاع بعد أن أصبحت الحكومة البرلمانية المفروضة لاتعبر عن هذه المصالح ، ولم تكن تعبر حقيقة عن رغبة قطاع واسع من الشعوب الإسلامية التي ظلت علي احترامها للسلطان . الخليفة . كرمز لارتباطها بالمفاهيم الإسلامية (٢) ، وسارت هذه الحكومة التي سيطرت عليها عناصر مغرضة ومشبوهة في سبيل التحول إلي علمنة الدولة سواء أكان ذلك معبراً عن اتجاهها الذاتي أم عن رغبات مؤيديها من القوي الأوربية والمحافل الماسونية .

واصل السلطان عبد الحميد تدعيمه لفكرته فلم يقف عند إحياء لقب الخلافة بل أحاطه بكل مظاهر الهيبة والوقار اللائقة به ، وخصص نصيباً واضحاً من ميزانية الدولة لبناء المساجد في البلاد العربية ودعم المدارس الدينية وبناء العديد منها وجعلها علي درجة

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٨ ؛ وتبعه الكثيرون في وصف السلطان بالاستبداد ، د . عبد الرحمن برج : التاريخ العربي الحديث ص١١٦ ؛ د . رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ص ٢٥٤ .
(٢) د . أحمد عبد الرحيم : المرجع السابق ص ٢٤٧

تستطيع بها منافسة المدارس الأخري لغير المسلمين . وزُد مخصصات وإعانات العلماء كما أضاف مناهج عن الإسلام واللغة العربية إلي مناهج المدارس العلمانية التي أقامها الأجانب أو تتبع المدارس التبشيرية . وأبدى اهتماماً بالغاً بالمناسبات الإسلامية وأقام الحفلات العلنية لها ودعّمها دعماً واضحاً (١) ، كما كما اهتم باللغة العربية وقرّب العديد من علمائها إلي وأوكل إليهم مهام في وظائف الدولة العليا كان من أبرزهم الشيخ أبو الهدى الصيادي وعزت باشا العابد .

واستخدم السلطان عبد الحميد حقه في تعيين موظفين دينيين في الأملاك العثمانية التي خضعت للاحتلال ، ولعله في ذلك قد أبدى حرصاً علي استمرار صلته بالشعوبالإسلامية أكثر من حرصه بالارتباط بشخص الحكام ، ويبدو ذلك أيضاً في تتبعه لأمور المسلمين الخاضعين لنفوذ أجنبي واحتجاجه الدائم علي ما يتعرضون له من قبل الدول المحتلة .

ومن أبرز ملامح التجاوب بين السلطان عبد الحميد والشعوب الإسلامية وخاصة العربية تبرع المسلمين بنفقات خط سكة حديد الحجاز الذي أنشأه السلطان بين دمشق والمدينة المنورة بقصد دعم الترابط بين المسلمين وبين المنطقة المقدسة ، وكان ذلك المشروع بمثابة انتصار لسياسته الرامية إلي دعم فكرة الجامعة الإسلامية وتعبيراً عما حققته من نجاح في فترتها الأولي .

ولعل ما يتوّج عصر عبد الحميد وسياسته الإسلامية هو موقفه من الأطماع الصهيونية في فلسطين ، حيث رفض ذلك السلطان المسلم العروض المتتالية منهم والخاصة بدفعهم منحة مالية كبيرة في مقابل السماح لهم بالهجرة إلي فلسطين ، ومما يؤثر عنه في

(١) المرجع السابق ص ٢٥١ .

هذا الأمر قوله : " لماذا نترك القدس .. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان ، وستبقي كذلك فهي من مدننا المقدسة ، وتقع في أرض إسلامية ولابد أن تظل القدس لنا " (١) .

وحاول اليهود الضغط علي السلطان عبد الحميد من خلال الدول الأوربية لكن هذه الضغوط لم تسفر عن نتيجة سوي إطالة مدة إقامة اليهود في فلسطين إلي ثلاثة أشهر بدلا من شهر واحد ، واختار السلطان عبد الحميد بنفسه باشوات بيت المقدس حتى لاتؤثر فيهم أساليب اليهود الصهاينة ويكونوا ملتزمين بتنفيذ أوامر السلطان للوقوف أمام أطماعهم (٢) .

وحين استغل الزعيم الصهيوني هرتزل ما يحيط بدولة الخلافة من ظروف اقتصادية صعبة وعرض علي السلطان رشوة بمبلغ مليوني جنيه مقابل الحصول علي فلسطين ، رد عليه السلطان رداً قاطعاً بقوله : " إني لا أستطيع التخلي عن شبر واحد من الأرض ، فهي ليست ملك يميني ، بل هي ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في هذه الأرض ورواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم ، وإذا مزقت إمبراطوريتي يوماً فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن ، أما وأنا حي فإن عمل المبضع في بدني لأهون علي من أن أري فلسطين قد بترت من إمبراطوريتي ، وهذا أمر لايكون ، إني لا أستطيع الموافقة علي تشريح أجسادنا ونحن علي قيد الحياة " (٣) .

ولاشك أن موقف السلطان عبد الحميد من الأطماع اليهودية إذا كان قد أثار عليه اليهود ومعهم الدول الأوربية وذلك لاتفاق مصالح وأطماع الجانبين تجاه تقسيم الدولة ، إلا

---

(١) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ٢٣ .
(٢) د . عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية ، ج ٢ ص ٩٧٩ .
(٣) د . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٩٩٠ ، ٩٩١ .

أنه قد لقي استحساناً لدى كافة رعايا الدولة المسلمين وبخاصة العرب وهو أمر قد بدا واضحاً في اتساع دائرة التأييد لفكرة الجامعة الإسلامية .

التيار المؤيد لفكرة الجامعة الإسلامية

أتاحت سياسة السلطان عبد الحميد الإسلامية الفرصة لظهور بعض المفكرين المسلمين في تركيا ومساندتهم لفكرة الجامعة الإسلامية لعل في مقدمتهم " أحمد جودت باشا ١٨٢٢ - ١٨٩٥ م " الذي دعا إلي ضرورة التمسك بالإسلام والابتعاد عن الغرب الأوربي وعدم الثقة في دوله والتنبه لمخططاته العدائية .

وظهر أيضا الشيخ "عاطف اللاسكليبي ١٨٧٦ - ١٩٢٦ م " الذي ركّز فكره وجهده لدعم اتجاه الجامعة الإسلامية وكذلك دعم سلطة الخليفة ، ودعا الناس إلي ضرورة الالتفاف حوله ، والتبرع لدعم مشاريعه الإصلاحية بالأموال حتى لا يقع فريسة للديون الأوربية أو تتوقف هذه المشاريع ، كما دعا إلي عدم تقليد الغرب تقليداً أعمى يأخذ بالشكليات بل عليهم الأخذ بما ينفعهم من هذه المدنية (١) .

ومن الذين نبّهوا إلي خطر الوحدة القومية وضرورة العمل علي وحدة المسلمين " أحمد نعيم بابان زاده ١٨٧٦ - ١٩٣٤ م " فقد اعتبر القومية دعوة جاهلية وهي مذمومة ومرفوضة وأنها أقوى ضربة توجه للأمة الإسلامية . أما " بديع الزمان سعيد النورسي ١٨٧٦ - ١٩٦٠ م " فقد ركّز علي رفض الأخذ عن الحضارة الغربية ، ودعا إلي العودة إلي الإسلام الصحيح الأول وإلي ضرورة مساندة فكرة الجامعة الإسلامية (٢) .

---

(١) أحمد الشوابكة : المرجع السابق ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) أحمد الشوابكة : المرجع السابق ص ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٤ .

وإلي جانب هؤلاء كان دور الشاعر " محمد عاكف ١٨٧٣ -١٩٣٦ م " وأبو الهدي الصيادي ١٨٤٩ -١٩٠٩ م " و " عبد القادر المغربي ١٨٦٧ -١٩٥٦ م و " رفيق العظم ١٨٦٧-١٩٢٥ م " .

ومن دعاة الجامعة الإسلامية الذين ذاع صيتهم أكثر من غيرهم " السيد جمال الدين الأفغاني " و " الشيخ محمد عبده " و " السيد محمد رشيد رضا " .

جمال الدين الأفغاني وفكرة الجامعة الإسلامية

مازالت نشأة السيد جمال الدين وانتماؤه المذهبي موضع خلاف بين المفكرين وكذلك آراؤه وأفكاره ، فمنهم من يراه أفغاني المولد والنشأة ، ومنهم من يشكك في ذلك ويراه إيرانيا في مولده ونشأته ، وهو ما انسحب علي انتمائه المذهبي هل هو سني أم شيعي ؟، وقد جعل بعض المغرضين من المفكرين من هذا الخلاف منفذاً لمهاجمة بعض الآراء والمذاهب الإسلامية وكذلك فكرة الجامعة الإسلامية مثل المفكر المصري لويس عوض .

والثابت لدي أغلب المفكرين أنه أفغاني المولد ولد في مدينة " أسعد أباد " من أعمال " كابل " سنة ١٢٥٤ هـ/ ١٨٣٨ م ، ويقال أن ارتباط اسمه بلقب السيد يرجع إلي انتسابه إلي الحسين بن علي رضي الله عنهما . وقد درس جمال الدين علوم اللغة العربية والتاريخ والعلوم الدينية والفلسفة في " كابل " (١) . وقد أهلته هذه العلوم لأن ينال حظوة لدى الأمير " دوست محمد خان " والأمير " محمد أعظم خان " . وخلال عمله الإداري اطلع علي أبعاد الصراع البريطاني الروسي علي بلاده فاكتسب بعداً جديداً في الأمور السياسية وازداد هذا البعد من خلال جولاته التي قام بها في كثير من بلاد الشعوب الإسلامية حتى كان وصوله إلي الآستانة ومصر فانصهر مع فكرة الجامعة الإسلامية .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٥٨

وبشكل عام فإن تصور جمال الدين للجامعة الإسلامية قد تأثر بعاملين رئيسيين أولهما اشتراكه في المحافل الماسونية والاني هو الواقع الفعلي الذي أصبحت عليه الأقطار الإسلامية بعد أن تقاسمت الدول الاستعمارية وبخاصة انجلترا وفرنسا السيطرة علي أغلبها ، ولهذا بدت رؤيته لهذه الجامعة وحدة سياسية تقوم علي تعاون الحكام المسلمين . لا علي الشعوب . يكون سلطانها القرآن الكريم ووجه وحدتهم الدين علي أن يحتفظ كل وطن إسلامي بملامحه القومية (١) ، وهو ما ارتكز عليه البعض في أن يلقب جمال الدين بأبي القومية (٢) ، ويعتبر هذا الاتجاه عند جمال الدين مناقضاً لدعوة الجامعة الإسلامية في نظر أتباع الفكر الإسلامي حيث لا يمكن قبول وحدة إسلامية علي أطر قومية ، كما أن ذلك هو السبب الرئيسي الذي جعله يصطدم بالسلطان عبد الحميد الذي غضب عليه وطرده خارج البلاد (٣) .

وعلي الرغم من أن اتجاه جمال الدين قد لقي رواجاً لدي بعض المفكرين ممن سموا بالمجددين أو دعاة الإصلاح ، وأنه قد استمد الكثير من آرائه في الإصلاح من الأسس الإسلامية ، إلا أن انغماسه في قضايا الشعوب التي زارها وتركيزه علي قصر الدعوة للثورة فيها من خلال ظروفها قد جعله يبدو في صورة ثائر قومي أكثر من كونه ثائراً إسلامياً ،وإن كان في ذلك أقرب إلي التأثر باتجاه المحافل الماسونية أكثر من تأثره بمنظور الخلافة الإسلامية التي كانت في أمس الحاجة االتعضيد والمؤازرة ، ومن الأمور التي تؤكد ذلك تأكيده علي ضرورة تحويل الممالك الإسلامية إلي ممالك دستورية حتى تصبح الدولة الاتحادية

---

(١) د . زكريا سليمان بيومي : الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية ، ص ١١
smith , w .c , islam in modern history . p , 89 ؛

(٢) د . زكريا سليمان : التيارات السياسية والاجتماعية بين المجددين والمحافظين ، قراءة في فكر الشيخ محمد عبده ص ٦٣ .

(٣) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٢ .

الإسلامية دولة دستورية دونما إشارة إلي مدي اعتماد هذه الدساتير علي الشريعة الإسلامية،بل إنه ذهب إلي أكثر من ذلك حينما ضرب مثلا بدستور مدحت باشا ذلك الدستور الذي كان بداية لعلمنة الدولة وتحللها من أحكام الشريعة الإسلامية(١).

الشيخ محمد عبده وفكرة الجامعة الإسلامية

هو محمد عبده ابن حسن خير الدين المصري ، ولد في قرية شبشير من قري مديرية الغربية ، ونشأ وتربي في محلة نصر إحدي قري مركز شبراخيت محافظة البحيرة سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م .

بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل للتعلم في المسجد الأحمدي بطنطا ، ذلك المسجد الذي كان يعج بكثيرين من رجال الطرق الصوفية ، فقد تأثر الشيخ ببعض المتصوفة من أمثال الشيخ درويش . لكنه سرعان ما وقع أسيراً لوافد جديد علي مصر هو السيد جمال الدين الأفغاني حيث تبعه في آرائه وفي نشاطه السياسي وغير ذلك فدرس عليه الفلسفة وعلوم الكلام .

وقد اقتنع محمد عبده في بداية حياته برأي أستاذه جمال الدين حول فكرة الجامعة الإسلامية ، وصاغ العديد من المقالات في العروة الوثقي التي تقدم العصبية الدينية علي العصبية الجنسية ، ورمي دعاة العصبية الجنسية (القومية) بالغفلة وبأنهم أبواق المستعمر الذي يحاول توهين العصبية الدينية ليقطع الرابطة التي تجمع بين شعوبها ، وأكد أن المستعمر أكثر عصبية للدين فيما تجري عليه سياستهم . وفي مقال آخر بعنوان " الوحدة الإسلامية " قال إنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، وأن تعدد الملكة عليهم كتعدد

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

الرؤساء في قبيلة واحدة ، وأرجع التدهور الذي حاق بالأمة الإسلامية إلي تنازع الرؤساء واستنصارهم بعدوهم علي أنفسهم من أجل الحفاظ علي ملكهم (١) .

وقد ارتبط هذا التصور ارتباطاً وثيقاً بموقفه آنذاك من الدولة العثمانية التي كان يعتبر " أن المحافظة عليها ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين الكافلة لبقاء حوزته وليس للدين سلطان في سواها ، وأكد أنه علي هذه العقيدة يحيا وعليها يموت " (٢) .

إلا أنه سرعان ما عدل عن هذه الآراء مفضلاً عليها رأي أستاذه جمال الدين فدعا إلي أن تنصرف الأقطار العثمانية إلي ترقية نفسها بنفسها من غير معاداة ولا مباراة لتركيا ، وأن تنصرف كل لرعاية شئونها ، وهو أمر يفسر بعده عن السياسة وانصرافه عنها إلي الانغماس في قضايا الإصلاح الاجتماعي في مصر.

ومع أنه أكد أنه " لا يوجد مسلم يريد بالدولة العمانية سوءاً ، وأنها سياج في الجملة يجمع المسلمين وعليهم المحافظة عليه وأن يعملوا لأنفسهم قبل زوال هذا السياج وإلا أصبحوا كاليهود بل أقل من اليهود " ، إلا أنه عارض اتجاه المنار للتدخل في السياسة العثمانية وخدمة الدولة العلية ، وعلّل ذلك بأن المسلمين ليس لهم إمام في هذا العصر غير القرآن وأن الخوض في السياسة العثمانية فتنة يخشى ضررها ولا يرجى نفعها ، وأن الناس - في مصر - لا يحبون أن يسمعوا في السلطان والدولة إلا ما يشتهون ، ومصر ليس فيها سياسة ، والمسلمون لا ينهضون إلا بالتربية والتعليم فلا تخلط السياسة بمقاصدك الإصلاحية لئلا تفسدها عليها فإنها ما دخلت في عمل إلا وأفسدته ". ومع أنه قد حاول

---

(١) د . زكريا سليمان : التيارات السياسية ص٨٦ .
(٢) د . زكريا سليمان : التيارات السياسية ص ٨٦ .

التبرير بأن ذلك لا يتعارض مع الاستمرار في الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية ومن خلال تصور لها وهو التعاون والاتحاد بين أوطان العالم الإسلامي بعد إصلاحها والنهوض بها،إلا أن ذلك كان يعني أنه قد غلّب الدعوة المصرية علي حساب الفكرة الإسلامية (١) .

ورأي محمد عبده أن تحقيق الوحدة السياسية بين بلدان العالم الإسلامي . وهم ما هم عليه من تخلف وضعف . يعد ضرباً من الجنون ، حيث كان يري أنه لكي تتحقق هذه الوحدة لابد أن تسبقها حركة إصلاحية شاملة ، وهو أمر دعاه لتأييد رجال تركيا الفتاة ومخالفة السلطان عبد الحميد ، ودعاه أيضاً إلي الاختلاف مع أستاذه جمال الدين مما اضطر جمال الدين إلي اتهامه بأنه " مثبط للهمم " . بل لقد حاول محمد عبده أن يقنع أستاذه بأفكاره حيث اقترح عليه ، بعد أن تعطلت مجلة العروة الوثقى في أواخر ١٨٨٤ م وبعد فشل مشروع الجامعة الإسلامية ، أن يعتزلا الاشتغال بالسياسة وأن ينشئا مدرسة لتربية النشء وفقاً لمنهج ومقاصد لتكوين صفوة من الشباب (٢) .

وكان من الطبيعي أن تلقي آراء محمد عبده تجاه الجامعة الإسلامية قبولاً لدي أصحاب الثقافة الغربية أو ممن سموا أنفسهم بالمجددين من المفكرين المصريين ، في حين لقي الشيخ بسبب هذه الآراء معارضة واضحة من أتباع الفكر الإسلامي الذين كانوا يعبرون عن مشاعر وميول غالبية الشعب المصري المسلم الأمي المغيب ، وحين وجد أتباع التيار الإسلامي مساندة . بفعل الظروف السياسية . من السلطة الشرعية ممثلة في الخديوي عباس حلمي الثاني وهاجموا الشيخ بضراوة معلنين عن رفضهم لمحاولاته الإصلاحية في الأزهر وغيره اضطر الشيخ محمد عبده للتحالف مع التيار الثقافي من ذوي الميول الغربية

(١) المرجع السابق ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) مجلة المنار ، ج ١٠ ، م ١١ ص ٧٤٠ .

وهو التيار السياسي القريب من دعم المندوب السامي البريطاني الذي برز فيه قاسم أمين وأحمد لطفي السيد وسعد زغلول ، وهو التيار الذي امتطي الركب السياسي في أعقاب الحرب العالمية الأولي .

السيد محمد رشيد رضا

علي الرغم من أن الشيخ رشيد رضا يعد من أبرز تلاميذ الشيخ محمد عبده إلا أنه يختلف كثيرا عن الذين يطلقون علي أنفسهم . أو يطلق عليهم . مدرسة الشيخ محمد عبده من المفكرين من دعاة التجديد والمثقفين ثقافة غربية ، وذلك لأن رشيد رضا قد تعلم مع شيخه واقتنع بآرائه في الفترة الأولي السابقة علي تأثر محمد عبده بالأفكار الماسونية في بيروت وفرنسا . علي أن ذلك لا يعني أن رشيد رضا نفسه لم ينغمس هو الآخر في هذه الآراء ولعل من الدلائل التي تشير إلي ذلك اشتراكه في حزب اللامركزية مع بعض الأعضاء الماسون مثل شبلي شميل ورفيق العظم واسكندر عمون وداود بركات (١) ، وهي جمعية شنت هجوماً شديداً علي السلطان عبد الحميد لدرجة أنه أطلق عليها إسم الجمعية الفاسدة .

علي أن رشيد رضا قد عاد وحمل علي هذه الحركة " الماسونية" حملة شديدة علي صفحات المنار ، وأصدر بعض الفتاوي التي تحرّم التعامل معها أو اعتناق مبادئها (٢) وكان يعتبر الهجوم علي العناصر المنتمية لها في جماعة تركيا الفتاة دعماً لفكرة الجامعة الإسلامية .

---

(١) سالم عبد النبي قنيبر : عبد العزيز جاويش ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب اسكندرية ص ٢٩٠ ، المنار ج ٢ ، م ١٦ ، فبراير ١٩١٦ م ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩ .

(٢) محمد علي الزغبي : الماسونية في العراء ص ٢٣١ ، وانظر نص الفتوي في " محمد صفوت السقا وسعدي أبو حبيب : الماسونية ص ١٨٠ ـ ١٨٣ .

ومن المرجح أن يكون الشيخ رشيد رضا قد اطلع علي بعض الآراء الماسونية في لبنان التي شهدت ميلاده ونشأته ومراحل تعليمه الأولي ، كما أن تعليمه في المدرسة الرشيدية ، ودراسته للغة التركية ، ثم دراسته في بعض المدارس الدينية التي حفظ فيها القرآن صغيراً ، كلها أسهمت في توجهه لمساندة فكرة الجامعة الإسلامية التي كانت من بين عوامل لقائه وخلافه مع شيخه محمد عبده ، وتوجهه لمهاجمة المحافل الماسونية وأصحاب الدعوة للإصلاح علي أسس علمانية .

لكن الشيخ رشيد رضا قد تقلّب في ولائه بين بعض الحكام السياسيين في أعقاب إلغاء الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤ م فأيد ترشيح ملك مصر فؤاد للخلافة ، وعدل بعض الشئ عن ذلك بعد مدة . كما أن نشأته المتأثرة بالصوفية لم تمنعه من التأييد الكامل للدعوة السلفية في جزيرة العرب ، وتأييد إمامها عبد العزيز آل سعود في موقفه ضد الأشراف وضم الحجاز (١) ، وهو أمر جلب عليه الشك أحيانا فلم تبتعد عنه أصابع الاتهام من قبل أتباع التيار المعادي للاتجاه الإسلامي.

التيار المناهض لفكرة الجامعة الإسلامية

علي الرغم من كثرة الصحف التي صدرت للتصدي لفكرة الجامعة الإسلامية أو لمهاجمتها ومهاجمة دعاتها والتنديد بهم إلا أنها - أي الصحف - لم تكن تعبر عن تيار شعبي في أي من البلاد الإسلامية . فقد احتمى أصحاب هذه الصحف - وكانوا في أغلبهم من اليهود - بنفوذ الدول الأجنبية في بلاد الشام ، وساعدتهم هذه الدول بالأموال والمطابع علي الترويج لآرائهم . أما في مصر فقد قاد التيار المعادي للجامعة الإسلامية مجموعة من الصحفيين الشوام من النصاري واليهود ومن انضم إليهم من أعضاء المحافل الماسونية في

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ٢٦٩ .

مصر، واحتموا بنفوذ الدول الأجنبية وبخاصة بريطانيا. وبعد خضوع مصر للاحتلال البريطاني نشط هذا التيار عن ذي قبل وزاد عدد الصحف في مطلع القرن العشرين، وقامت حولها أحزاب سياسية كانت أحزاب حكومية موجهة أكثر منها أحزاب شعبية، وكان زعماؤها يبحثون عن قاعدة أكثر من كونهم قادة أفرزتهم قوي أو فئات شعبية، وبالتالي كانت الأحزاب أحزاباً صحفية ولم تكن الصحف صحفاً حزبية.

وعلي الرغم من وجود بعض من هذه الصحف المناصرة لفكرة الجامعة الإسلامية كصحيفة "المؤيد" التي كان يرأس تحريرها الشيخ "علي يوسف"، وصحيفة "اللواء" التي أصبحت لسان حال الحزب الوطني المصري بزعامة "مصطفي كامل" و"محمد فريد"، إلا أن هذه المساندة كانت في نظرهم سبيلاً لمقاومة الاحتلال من جهة ولدعم سلطة الخديوي أكثر منها تأييداً لاتجاه السلطان عبد الحميد من جهة أخري، ومع ذلك فقد نعم هذا الاتجاه في مصر بتأييد السلطان، وبترحيب جماهيري كبير وضعهم في صدارة الحركة الوطنية.

ومما لاشك فيه أن الدول الأوربية والمنظمات والجمعيات اليهودية قد تحالفت في خلق الوسائل لضرب فكرة الجامعة الإسلامية، ومع ذلك فقد حاولت بعض هذه القوي الاستفادة من هذه الفكرية وتوجيهها لحسابها. فقد حاول بعض الإنجليز مساندة تيار الجامعة الإسلامية واستخدامه في مقاومة التوسع الروسي، وفي نفس الوقت الاحتفاظ بولاء المسلمين في الهند عن طريق التظاهر بمساندة الفكرة والدولة العثمانية وخليفة المسلمين.

كما سعي اليهود للتسلل إلي هذا التيار وتوجيهه من خلال زعامات ماسونية مؤيدة للجامعة الإسلامية ولكن مع الحفاظ علي الإطار القومي للولايات العمانية وهو تيار

لايتفق مع رؤية السلطان عبد الحميد ، ومن جهة ثانية توجيه تيار العداء لدي الشعوب الإسلامية إلي الشعوب الغربية المسيحية دون اليهود علي الرغم من دور العديد من العناصر اليهودية وكذا الجمعيات السرية التي أسسوها في ضرب الاتجاه الإسلامي والعمل علي تحطيم وحدة الدولة الإسلامية (١) .

ونعرض بعد ذلك لأهم الكتّاب المعارضين للجامعة الإسلامية ونذكر منهم فرنسيس مراش الحلبي ١٨٣٦ - ١٨٧٣م وهو مسيحي كاثوليكي من حلب درس الطب علي يد طبيب إنجليزي في حلب ، ثم سافر إلي باريس واستقر فيها ، وانضم في باريس إلي التيار الذي يهاجم الحكم العثماني الذي يمثله السلطان عبد الحميد ، واتهمه بأنه حكم عنصري ، ودعا إلي ضرورة الثورة عليه (٢) .

ومن حلب أيضا ظهر رزق الله حسون ١٨٢٥ - ١٨٨٠ م وهو أرمني تعلم في حلب اللغة العربية والفرنسية والتركية ، انتقل للعمل سكرتيراً لفؤاد باشا وزير خارجية الدولة العثمانية في أواخر ١٨٦٠ م ، ثم عيّن ناظراً لجمارك التبغ ، فاتهم بالاختلاس وأودع السجن ، ثم فر منه إلي روسيا ثم لندن . وفي لندن بدأ نشاطه المعادي لحكم السلطان عبد الحميد وهجومه علي الجامعة الإسلامية . وعلي الرغم من أنه قد دعا العرب للثورة والاستقلال عن الدولة العثمانية إلا أنه في نفس الوقت قد دعا إلي أن تكون انجلترا هي البديل عن الترك في حكم العرب ، وكذلك دعا الطوائف المسيحية في الشام إلي الارتباط بفرنسا لأنها حامية المسيحيين في الشام (٣) .

---

(١) الغريب في الأمر أن من أهم هذه الزعامات جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفي كامل ومحمد فريد وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم .
(٢) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ١٠٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠٥ .

وظهر أيضا جبريل دلال الحلبي١٨٣٦- ١٨٩٢م وهو مسيحي كاثوليكي من حلب وظّفته فرنسا للعمل في جريدة الصدي التي كانت تصدر بالعربية للترويج للسياسة الفرنسية في الشرق ، وتبني في جريدته الدعوة للثورة علي العثمانيين (١) .

ويختلف شبلي شميّل ١٨٥٠ - ١٩١٧ م عن سابقيه حيث تأثر بالأفكار الليبرالية التي درسها في باريس فأصبح ملحداً فهاجم المعتقدات الدينية واعتبرها العلة الوحيدة لشرور المجتمع الشرقي ، وأنكر الوحي والبعث وأكد أن الدين هو علة انحطاط الشرق وتأخره ، وهاجم المجتمعات الشرقية لأنها مازالت تقيم وزنا للرابطة الدينية في حياتها كما هاجم العاطفة الدينية والوطنية معاً ، وهاجم الدولة العثمانية كذلك واتهمها بأنها تخلو من العلم والعدل والحرية ، وانحاز لحزب تركيا الفتاه ضد السلطان عبد الحميد . وقد أسرف كثيراً في مدح الإنجليز وأنكر علي المصريين مقاومتهم ، ورأي أن الاستعمار الغربي للشرق هو المنقذ الوحيد للشرقيين (٢) .

ومن أبرز المناهضين لفكرة الجامعة الإسلامية كذلك أحد الروم الكاثوليك وهو نجيب عازوري ؟ ١٩١٦. م وهو سوري تربي تربية فرنسية ، عيّن موظفا في لواء القدس ١٨٩٨- ١٩٠٤ م ، ثم ترك وظيفته وسافر إلي باريس لينضم إلي ركب المعادين للجامعة الإسلامية وقد أسّس هناك جمعية سنة ١٩٠٤ م باسم " عصبة أو جامعة الوطن العربي " جعل هدفها تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية ، وأصدر كتباً بالفرنسية عن يقظة العرب ، كما أصدر مجلة شهرية باسم " الاستقلال العربي " ، وقد دعا علي صفحات مجلته إلي نبذ

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

الرابطة الدينية وإحلال الرابطة الجنسية والوطنية بين العرب مسلمين ومسيحيين ، لكنه عاد فدعا إلي قيام كنيسة عربية واحدة ، وخلافة عربية يفصل فيها بين الدين والدولة (١).

أما عن التيار المناهض لفكرة الجامعة الإسلامية في مصر فقد تمثل في مجموعة من المفكرين الشوام من النصاري واليهود وبعض أعضاء المحافل الماسونية ، إلي جانب بعض المفكرين المصريين من الأقباط المسيحيين . فمن الشوام ظهر سليم سركيس الذي أصدر صحيفة المشير في ١٨٩٤ م في الإسكندرية ، وانتقلت إلي القاهرة في العام التالي ، ثم إلي نيويورك في ١٨٩٩ م حتى توقفت عام ١٩٠٢ م ، وركّزت مقالاتها علي مهاجمة الجامعة الإسلامية ، وأيّدت حكم الأوربيين للعرب . وقد نعم بحماية السلطات البريطانية في مصر وحين صدر قرار من المحكمة في مصر بتسليمه للدولة العثمانية رفض "كرومر" المندوب السامي البريطاني في مصر ذلك ووفّر له الحماية مما دعاه للاستمرار في حملته المعادية للعثمانيين والجامعة الإسلامية (٢)

وصدرت في نفس الاتجاه صحيفة أخري في مصر باسم " تحرير سوريا" عن جمعية الإصلاح السورية في القاهرة بإشراف " محمد أمين الدمشقي " و " جورج عساف " ، وأبدت كرهاً للحكم العثماني وأعربت عن أن السوريين يكرهون ذلك الحكم ويتعلقون بفرنسا (٣)

وقد التفت العناصر المسيحية في مصر خلف صحيفتي " الوطن " والتي كانت مملوكة لأحد الشوام البروتستانت ، و" المقطم " وكانت مملوكة لكاثوليكي من الشام أيضاً إلي جانب صحيفة " مصر" . فقد وقفت صحيفة مصر موقفاً معادياً لفكرة الجامعة الإسلامية ، ورفضت الاتجاه الداعي إلي ضرورة مساعدة مصر للدولة العثمانية في حربها مع

(١) د . محمد برج : المرجع السابق ص ١٠٩ .
(٢) أحمد الشوابكة : المرجع السابق ص ١١٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١١٥ .

اليونان سنة ١٨٩٧ م معللة ذلك بأن الحرب بين دولتين لا علاقة لمصر بهما . وحين استجاب المصريون لحملة التبرعات للدولة العثمانية علّقت الصحيفة علي ذلك بأن الدولة العثمانية ليست في حاجة إلي هذه التبرعات ، وأنه إذا كان لابد منها فتكون باسم الجامعة الوطنية والرابطة المصرية وبعيداً عن الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية . وفي نفس الوقت امتدحت الصحيفة الإنجليز وأيّدت احتلالهم لمصر وأشادت بفوائد ذلك وما أدخلوه من إصلاحات فيها (١) .

أما صحيفة " المقطم " فقد شاركت مثيلاتها وهاجمت الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية ، وأعلنت مساندتها للفئات الثائرة علي العثمانيين كالأرمن وغيرهم ، وسارت في نفس تيار جريدة "مصر" في مهاجمة حملة التبرعات للدولة العثمانية ، وطالبت الإنجليز بردع المظاهرات المؤيدة للعثمانيين في مصر ، ودعت إلي ضرورة فصل الدين عن السياسة وعدم الخلط بين الحرب والجهاد .

أما صحيفة " الوطن " فلم تقف عند حد الهجوم علي الجامعة الإسلامية بل تعدته إلي الهجوم علي العقيدة الإسلامية ذاتها ، ونشرت العديد من مقالات التجريح في التاريخ الإسلامي والعقيدة الإسلامية . فتحت عنوان"الإنسانية تتعذب " نشر" فريد كامل" مقالاً قال فيه " إذا رجعتم إلي تاريخ الإسلام في عصر زهوه وعزه وعظمته ومجده وأردت أن تستخرج من الدفائن المكنونة سر ذلك العز الخالي وسبب تلك العظمة البالية وكشف مواطن الرجال الذين قاموا بالفتوحات واطلعت علي دخائل وخفايا القلوب والسرائر في تلك الأيام الماضيات ، لعرفت أن الأثرة هي التي أراقت الدماء وأن الأنانية هي التي أزهقت الأرواح وطوّحت بالمهج الغالية في هوة البوار ، ولأدركت أن الاعتزاز بالقوة والاستهتار

(١) المرجع السابق ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

بالضعيف هما الحجران اللذان بني عليهما ما يسمي حد الإسلام فكفاهم تعذيباً للإنسانية وكفاهم تمزيقاً لجسدها ، كفاهم ما أنزلوه عليها من مجالدهم الجهنمية وليسقط المنافقون المكابرون " (١)

وقد وقفت صحيفة اللواء لسان حال الحزب الوطني لهذا التيار المعادي للإسلام والجامعة الإسلامية ، علي أن موقفها في الغالب كان موقفاً تكتيكياً وليس مبدئياً كما سبق التوضيح .

وعلي الرغم من أن محمد فريد كان في أصله تركياً إلا أنه قد سار في تدعيم الاتجاه الوطني المصري علي حساب الاتجاه للارتباط بالدولة العثمانية، وكان ذلك لارتباطه بالمحفل الماسوني المصري وحصوله علي مرتبة عالية فيه . أما الزعيم الثالث في الحزب الوطني والذي ترأس تحرير اللواء بعد مصطفي كامل وهو الشيخ عبد العزيز جاويش فقد وقف مؤيداً لفكرة الجامعة الإسلامية ومهاجماً لتيار الصحف المعادية لها وللإسلام، وكذلك لدعاة القومية المصرية الذين كوّنوا حزب الأمة برعاية المندوب السامي البريطاني .

كما أبدى بعض المصريين ـ من المثقفين ثقافة غربية ـ تعاطفاً مع بعض العناصر الثائرة علي السلطان عبد الحميد والتي كانت موجودة في باريس ثم اتخذت من مصر وجنيف ماوى لها بعد أن تمكن السلطان من اكتشاف أمرها . وقد سمحت لهم الظروف في مصر ـ بوجود الاحتلال البريطاني وحمايته لهم ـ للتعبير عن آرائهم فأصدروا صحفاً خاصةً بهم هاجموا فيها السلطان عبد الحميد واتهموه بالاستبداد وفساد الحكم ، ومن هذه الصحف صحيفة "أناضولي" التي كان يصدرها " آدنة لي سليمان وحيد "وصحيفة " أرناؤوطلق" للزعيم الألباني " درويش هيما " وصحيفة "جورجونة" ل " علي حافي " و"آتين

(١) الوطن : ١٥ يونيه ١٩٠٨ .

مظلوم" ل " مصطفي راغب" و"فريات" ل " أحمد توفيق" و "ميزن" ل "مراد بك" والتي كانت تنشر في مجموعها آراء تدعو إلي الحرية والدستور والقومية لضرب الجامعة الإسلامية ، وقد صدرت أغلب هذه الصحف في المدة من ١٨٩٥ م إلي ١٩٠٧ م .

ومع ذلك فإن هذه الصحف في أغلبها لم تكن تعبر إلا عن وجهة نظر أصحابها سواء أكانوا ممن يطلقون علي أنفسهم دعاة الحرية أم من التابعين المأجورين من رجال تركيا الفتاه ، وأن وجود الامتيازات التي تمتع بها الأجانب في مصر في ملكية الصحف في ظل الاحتلال قد مكنتهم من ذلك وهي أمور تظهر أنهم لم يلقوا تأييداً من غالبية المصريين وأن تأييدهم كان قاصراً علي قلة من المثقفين الليبراليين في مصر.

وظهر اتجاه بين أفراد الأسرة الحاكمة في مصر يناصر بعض رجال تركيا الفتاة في اتجاههم المعادي للسلطان والسعي لخلعه . من ذلك أن البرنس مصطفي فاضل باشا وضع ثروته لخدمة أغراض الثائرين علي السلطان في عهد السلطان عبد العزيز ، وأن الخديوي عباس حلمي الثاني دفع أربعة آلاف جنيه لأحد أعضاء تركيا الفتاه وهو إسماعيل كامل بك المعروف بتدبير؛ للمؤ مرات الرامية إلي خلع السلطان عبد الحميد، كما أن الخديوي قد استقبل البرنس صباح الدين حين أتي إلي مصر طلباً لمساعدته لنفس الهدف . وانضم كذلك أحد أعضاء الأسرة المالكة إلي جماعة الاتحاد والترقي وهو البرنس سعيد حليم ، ويلاحظ أن هؤلاء جميعاً كانوا من أعضاء المحافل الماسونية (١) .

ويري كثيرون من المفكرين المسلمين أن التيار الداعي إلي الخلافة العربية والذي دعا إليه عبد الرحمن الكوكبي وعبد الحميد الزهراوي والمفكر الإنجليزي بلانت يعد في

(1) kamal karpat turkey,s politics: the transition to a multi-party system perncetin university press N . J 1909 P 18 , 19

عمومه من التيارات المعادية لفكرة الجامعة الإسلامية وذلك لكونه قد دعا إلي الفصل بين المسلمين وتمزيق وحدتهم ، ذلك لأن الفكر الشمولي في المنهج الإسلامي لايمكن وضعه في إطار قومي يلفظه هذا المنهج ، فضلاً عن أن دعاة هذا التيار قد طرحوا فكرة فصل الدين عن الدولة فأكدوا حقيقة تأثرهم بالأفكار العلمانية وبعدهم عن حقيقة المنهج الإسلامي (١)

تقييم عام لفكرة الجامعة الإسلامية

وبشكل عام فإنه يمكن القول بأن السلطان عبد الحميد قد حقق للجامعة الإسلامية نجاحاً يبدو أمام الباحثين محدوداً ، وفرض علي أوربا ضرورة الحذر من استمرار استخدام سلاح الإسلام ، وكان من نتيجة ذلك أن أوقفت دول أوربا هجومها العسكري علي الولايات العثمانية بعد احتلال بريطانيا لمصر ، وزاولت بسط نفوذها من خلال المجال الاقتصادي والثقافي في الفترة المتبقية من حكم عبد الحميد . وحاولت محاصرة الفكرة من خلال الصحف والكتب التي أشرفت علي إنشائها واتجاهاتها ، وموّلت الدعاة المعادين لهذه الفكرة ، وحجبت بقواتها العسكرية ، إلي جانب عملائها ، بين الجماهير المسلمة وبين إبداء التعاطف الشعبي المؤيد للجامعة الإسلامية ، ووقفت أمام الوسائل المعبرة عن ذلك الأمر الذي جعلها تبدو محدودة أمام الباحثين الذي يقفون عند حد تفسير المدون والمكتوب ، في حين أن المتتبع لاتجاه الشعوب يري أن الفكرة تمثل اتجاهاً شعبياً جارفاً بين المسلمين أكدته العديد من الأحداث بعد ذلك والتي يمكن أن يقال أن امتدادها مستمر حتى الآن .

وتعد فكرة الجامعة الإسلامية في عمومها قد طرحت إطاراً التفت حوله الشعوب الإسلامية في كل مكان حتى خارج حدود السلطة أو الدولة العثمانية فتعاطف معها مسامو الشام ومصر ، ومثلت إطاراً هاماً لحركة الكفاح ضد الفرنسيين في الشمال

(١) د . محمد برج : المرجع السابق ص ١٠٤ .

الإفريقي ، وفي برقة رفض السنوسيون الفرمان العثماني القاضي بمنحهم الاستقلال عن الدولة العثمانية بعد انسحاب الجيش العثماني منها وتركها للإيطاليين (١) ، وظلت اليمن علي ولائها للدولة العثمانية .

وعلي العكس من ذلك كانت الحركة القومية حركة محدودة في أشخاص دعاتها ولم تنل تأييداً واسعاً في الشام ومصر ، واعتمدت اعتماداً رئيسياً علي مساندة الدول الأوربية التي استطاعت أن توجهها لحسابها في زيادة حجم نفوذها واستمرار وجودها وزيادة نشاطها التجاري ، وكذلك استغلتها الجمعيات السرية اليهودية لتحقيق أطماعها في تمزيق وحدتها وضرب الكيان الإسلامي العثماني الذي شكّل عقبة في طريق تحقيق أهدافها . ولا نتفق في هذا مع الذين فسّروا لجوء الاتجاه القومي إلي العمل السري بأنه كان دليلاً علي سياسة الاستبداد والكبت حيث كان السبب الحقيقي للجوء الجمعيات القومية إلي السرية هو فقدانها لقاعدة جماهيرية تؤيدها .

وأكدت هذه الحقبة وما تلاها من محاولة إعلاء هذا التيار القومي بأنه لم يكن ولن يكون خياراً جماهيرياً بين شعوب تدين بالإسلام وتعرف رفض منهجه لأي توجه قومي أو عرقي ، في حين أن اتجاه الجامعة الإسلامية الذي يكمن في أعماق التاريخ والاعتقاد والثقافة عند غالبية المسلمين سيظل يشكل هاجساً لأعداء هذه الأمة وفي نفس الوقت إطاراً يمكن أن يلتقي حوله المسلمون في كل أرجاء العالم مهما اختلفت أشكال هذا التلاقي .

---

(١) د . رأفت الشيخ : المرجع السابق ص ١٨٨ .